# ضوابط التكفير عند أبي حامد الغزالي
## (دراسة تحليلية لكتاب تهافت الفلاسفة)

د/ مخلوف حمودي*

إن التكفير حكم شرعي لا يطلق على معين إلاَّ بشروطه الشرعية، ومن ثبتت في حقه تلك الشروط أطلق عليه حكم الردة بلا تردد، وليس لأحد أن يطلق حكم الكفر على معين إلا بضوابط شرعية، والجزم بالتكفير على معين وإخراجه من الإسلام خطر عظيم، حيث تترتب عليه آثار عديدة، كانتفاء ولايته العامة على المسلمين، وانتفاء ولايته على ذريته، تحريم زوجته عليه، سقوط إرثه الذي يستحقه لو كان مسلما، عدم حل ذبيحته، عدم جواز تغسيله والصلاة عليه إذا مات، وأنه لا يدفن في مقابر المسلمين، وعدم جواز الاستغفار له وما إلى ذلك من أحكام[1]...

ولهذا ورد الوعيد فيمن كفَّر مسلمًا، فقد جاء في السنة النبوية الشريفة حديث متفق عليه: "من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما" وفي رواية مسلم: "إن كان كما قال وإلا رجعت عليه"[2].

وقد افترق الناس في تحديد شروط التكفير وموانعه، فعند بعضهم : من تلفظ بالشهادتين لا يمكن تكفيره بحال، بل قالوا أنه لا يجوز تكفير شخص بعينه، وإنما إطلاق وصف الكفر يكون

---

* أستاذ في الشريعة الإسلامية، جامعة خروبة.

1. عبد الله بن محمد القرني، *ضوابط التكفير عند أهل السنة والجماعة*، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1990 م، ص 9.
2. أخرجه البخاري . *كتاب الأدب* 610 . ومسلم، *كتاب الإيمان*، 60.
3. نفس المرجع السابق، ص10.

على الأعمال، وأن سلطة الحكم على الأشخاص بالكفر ليست للأفراد بل للحاكم والقاضي المسلم.

وذهب فريق آخر إلى خلاف ذلك، أي أن تكفير المعين ممكن، وأن ذلك ليس من اختصاص الحاكم والقاضي المسلم، ولم يقولوا بالتكفير بالعموم دون النظر في تحقيق شروط التكفير، وانتفاء موانعه في حق المعين.

وقد عرفت ظاهرة التكفير أول ما عرفت في الفكر الإسلامي، حين كفرت فرقة الخوارج المارقة عليًا كرم الله وجهه بعد حادثة التحكيم المشهورة . حادثة صفين . ومنذ ذلك الحين وإلى يومنا هذا، والخلاف لا يزال قائما حول حقيقة الإيمان والكفر، وما يتبع ذلك من القول في التكفير، كما ذهب ضحية هذا الخلاف أعلام لا يزال الخلاف في حقهم إلى اليوم، فأبو منصور الحلاج (858م –922م الموافق لـ244هـ–309هـ) يعتبره الصوفية شهيداً، وعند من نفذوا الإعدام في حقه فهو كافر، وكذلك الشأن بالنسبة لشهاب الدين السهروردي صاحب كتاب " عوارف المعارف "(539هـ – 632هـ) والذي كان مصيره كمصير الحلاج.

أما في عصرنا هذا فقد تتبعنا أخبار الحكم بالكفر على الكاتب الهندي سلمان رشدي مؤلف كتاب "آيات شيطانية . المنبوذ . من طرف الإمام الخميني رحمة الله عليه .

وكذلك الحكم القضائي الذي أصدره القضاء المصري في حق الكاتب . نصر حامد أبو زيد . والضجة الإعلامية التي صاحبت الحكم بالتفرقة بينه وبين زوجته.

ومن هنا أردنا أن نقف عند الضوابط التي وضعها الإمام أبو حامد الغزالي في مشروعه التكفيري للوقوف في وجه الفكر اليوناني

الذي غزا الساحة الإسلامية، وحاول أن يقوّض أصول العقيدة الإسلامية من الداخل، فهو مشروع متكامل، هادف ومؤسس يتمثل في كتابه . تهافت الفلاسفة . الذي مهد له بكتاب . مقاصد الفلاسفة . وأتبعه بفضائح الباطنية، وهما التياران اللذان شكلا خطرا داهما على عقيدة الأمة، فخطر التيارات الفكرية الأجنبية على الأمة الإسلامية لا يزال قائما، وما يحدث في العالم الإسلامي اليوم خير دليل على ذلك، والعلم الحديث انفصل عن الفلسفة اليونانية ونتائجه النظرية والفلسفية تشكل نفس الخطر الذي كان للفلسفة اليونانية على عهد الغزالي، بل أكثر من ذلك، لأن الأمة الإسلامية اليوم في أقصى مراحل ضعفها، في شتى مجالات الحياة، على عكس ما كانت عليه في عهد الإمام أبي حامد الغزالي، ومن هنا فإن الإشكالية التي نحن بصدد معالجتها هي:

هل لا يزال المنهج الذي أقامه الغزالي للدفاع عن عقيدة الأمة صالحا في عصرنا هذا ؟ وإلى أي حد يمكننا الاستفادة منه ؟ وما مدى نجاحه ..؟

وسيكون عملنا وفق المنهجية الآتية :

**مبحث 1: الوضع الفكري في عهد الغزالي**

أ - من هو الإمام الغزالي ..؟

ب- مضمون الفكر اليوناني الذي واجهه الغزالي

ج - التيارات الباطنية.

**مبحث 2: في مواجهة الفلاسفة**

أ - ضوابط المنهج عند الغزالي

ب - منهجية المشروع

ج - نتائج المشروع

## مبحث 3: مشروع على ضوء الغزالي

أ – أسس العلم الحديث

ب – نتائج العلم المعاصر

ج – واجبات المسلم المعاصر

### من هو الإمام الغزالي[1]:

فيلسوف وفقيه وصوفي وأصولي، من أعلام المسلمين الموسوعيين.

ولد أبو حامد الغزالي بن محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي في قرية "غزالة" القريبة من طوس من إقليم خراسان عام (450هـ – 505 هـ الموافق 1003م – 1058م) وإليها ينسب.

نشأ في بيت فقير لأب صوفي، ودرس الفقه على الإمام أحمد الرازكاني في طوس، وفي جرجان أخذ عن الإمام أبي نصر الإسماعيلي، ثم عاد إلى طوس حيث بقي فيها ثلاث سنين، ثم انتقل إلى نيسابور والتحق بالمدرسة النظامية، وتلقى فيها علم أصول الفقه، وعلم الكلام على أبي المعالي الجويني إمام الحرمين حتى برع في الفقه وأصوله، وأصول الدين والمنطق والفلسفة، وبعدها اختاره الوزير السلجوقي "نظام الملك" للتدريس في المدرسة النظامية ببغداد، وكان ذلك سنة (484هـ) ثم قرر مغادرة بغداد فاتجه إلى الشام حيث أقام بها قرابة عامين ، معتكفا في مسجد دمشق، ثم انتقل إلى بيت المقدس في عزلة وخلوة، ثم عاد إلى دمشق من جديد واعتكف في المنارة الغربية من الجامع الأموي، وبعد ذلك اتجه إلى مكة حاجا سنة (489هـ) وبعد زيارته للمدينة المنورة عاد إلى دمشق ثم توجه إلى بغداد مرة أخرى، وبعدها إلى نيسابور لمعاودة التدريس بمدرستها النظامية، وترك التدريس بها سنة (500هـ).

---

1. أنظر ترجمته : *وفيات الأعيان*، 612/4. *البداية والنهاية* 183/12. *كشف الظنون*/ ص 2002.

عاد الغزالي إلى مسقط رأسه في طوس فبنى بها مأوى للطلاب والصوفية ممن يقصدونه، وظل بها لا يبرحها إلى أن توفي بها في (14 من جمادى الآخرة سنة 505هـ) وقد بلغ عمره (55سنة وبلغت مصنفاته (457 مصنفا) مابين كتاب ورسالة، أكثرها مخطوط، وأغلبها مفقود.

**من أهم مصنفاته :**

- المنحول في علم الأصول.
- البسيط في الفروع.
- شفاء العليل في القياس والتعليل.
- إحياء علوم الدين.
- تهذيب الأصول.
- المستصفى من علم الأصول.
- فضائح الباطنية.
- تهافت الفلاسفة الذي هو لب موضوعنا.

## مضمون الفكر اليوناني الذي واجهه الغزالي

تضمنت الفلسفة اليونانية جميع العلوم المعروفة في وقتها، وبلغت قمّتها مع أرسطو الذي كان مطلعا على جميع ما أنتجته اليونان من معارف، سواء ما اقتبسوه من الحضارات القديمة السابقة لهم أو ما أنتجته قرائحهم، وبعد فحصه لهذه المعارف انكب على تصنيف طرق الإقناع، وتصحيح مناهج التفكير الفلسفي والعلمي وتقعيدها، فوضع ما عرف فيما بعد باسم (المنطق) من جهة، وعمد من جهة أخرى إلى المعارف

العلمية والفلسفية السائدة في عصره فصححها بدورها، مضيفا إليها ما استفاده من أبحاثه الخاصة، وصاغ ذلك صياغةً على شكل منظومة متسقة، معتمدا على منهج تحليل الظواهر وربط المسببات بأسبابها، منطلقا من الحركة على الأرض إلى الحركة في السماء ليفترض في النهاية ضرورة "محرك أول" تنتهي عنده سلسة الأسباب ليكون هو السبب الأول لكل ما يحدث في الكون.

ولم يكن أرسطو منشغلا بالدين، فالديانات عند اليونان كانت وثنية تعتمد على الأسطورة، وليس على العقل أو الوحي، ولذلك فهو لم يتعامل مع المحرك الأول بوصفه إله بالمعنى الديني للكلمة . أي معبودا . أي بوصفه المحرك الذي لا يتحرك، أو الموجود الأسمى المنزه عن التغير، المفارق للمادة، فهو الموجود الأسمى الذي تتشوق إليه جميع الموجودات، فيحركها نحوه هذا الشوق، وهو السبب الأول الذي تنشدُّ إليه وتعشقه جميع الموجودات، وبالتالي الموجود الذي يستحق أن يسمى الإله، وهذا ما عرف فيما بعد بـ "ما بعد الطبيعة" أو الفلسفة الأولى.

أما ما يتعلق بالطبيعة فكان يرى أن على واضع أسس علم من العلوم أن يبتعد عن ملاحظة العالم الخارجي، لأن الحواس غشاشة، ويتحتم عليه أن يبتكر أسس العلم بالاعتماد على المناقشة الفكرية فقط، وأن يعلل الظواهر الطبيعية بقياسها على سلوك الإنسان والحيوان، فالطبيعة حيوان أكبر له خصائص الإنسان الأصغر وإرادته وغاياته، وهناك تعليل لكل ظاهرة طبيعية، ولا يكتنف الطبيعة أي غموض وكل شيء فيها واضح.

ومن هنا كان يوصف حركات الأجرام السماوية بذات العبارات التي يوصف بها المخلوقات الحية، فكما أن الكائن الحي يتجه إلى غاية يسعى للوصول إليها، فكذلك تفعل المادة الجامدة، فإذا ما سئل لماذا يصيب السهم صدر الجندي ؟ أجاب على الفور وبكل بساطة لأن المكان الطبيعي لهذا السهم هو صدر الجندي العدو، وإذا سئل لماذا تسقط الأجسام الثقيلة على الأرض ؟ أجاب تسقط هذه الأجسام على الأرض لتحتل مكانها الطبيعي، كالفأر يبحث عن حفرة يختبئ بها، وكذلك النار تصعد إلى أعلى لتنطلق إلى عالمها الطبيعي وهو عالم الأفلاك، كالنسر يأوي إلى عشه في أعالي الجبال، فكل جسم إذا ترك وشأنه يفتش عن مكانه الطبيعي، فالأجسام الثقيلة تسقط مسرعة إلى الأرض وتزداد سرعة سقوطها بقدر ما يكون وزنها، بينما تسقط الأجسام الخفيفة ببطء آسفة مجبرة، ويتحرك الجسم إذا أثرنا عليه بقوة ويقف بزوال القوة المؤثرة أو يدور حركة دائرية منتظمة.

تلخص الأمثلة السابقة وكثيرة غيرها نظرة أرسطو للكون، وأنكر أرسطو صلاحية التجارب في المساعدة على وضع أسس العلم، لأن حواسنا هي التي تتكفل في نقل نتائج التجريب، والحواس غشاشة معرضة للخطأ، في حين لا يخطئ التفكير والمناقشة السليمة، تبدو لنا اليوم هذه الأفكار غريبة، والأغرب أنها سيطرت وسادت ما لا يقل عن عشرين قرن من الزمان، وانتشرت في بلاد اليونان وتناقلتها الأمم شرقا وغربا[1].

1. مرسل داغر، *النسبية من نيوتن إلى إينشتاين*، دار اليقضة العربية ، دمشق، سوريا، 1964م، ص17، 18.

عاش أرسطو زمن الإسكندر المقدوني وفتوحاته الكبرى في آسيا، وكان من نتائج هذه الفتوحات أن اختلط فكر اليونان بفكر الشرق ودياناته، فتأثروا بها، ثم ظهرت المسيحية من بعد ثلاثة قرون من وفاة أرسطو، فاصطدمت بعض عقائدها بالفلسفة اليونانية، لكنها لم تصمد أمامها طويلا حتى خضعت لها واستعانت بمنطقها في مقاومة "الغنوصية العرفانية " التي لا تخص أحدا بالنبوة والرسالة الإلهية، بل تؤمن بإمكانية اتصال الإنسان بالله مباشرة وبدون وسيط إذا هو تمكن من التحرر من الشواغل الدنيوية... كما استعانت بمنطق أرسطو في الجدل الديني الذي دار بين فرقها الدينية المختلفة.

ولما كانت فلسفة أفلاطون أستاذ أرسطو أقرب إلى التصورات الدينية، إذ كان قد تأثر بفكر الشرق ودياناته خلال دراساته ورحلاته في الشرق، فقد ظهرت تيارات فكرية تجمع بين أفلاطون وأرسطو وغيرهما من فلاسفة اليونان، عرفت فيما بعد باسم "الأفلاطونية المحدثة" وفي إطار الديانة المسيحية التي أصبحت الديانة الرسمية في منطقة الشرق الأوسط وحوض البحر الأبيض المتوسط، ظهر مفكرون وفلاسفة خاصة بالإسكندرية التي بناها الإسكندر المقدوني وانتقل إليها كثير من علماء اليونان وفلاسفتهم الذين عملوا على التوفيق بين الفلسفة والدين، ومن بينهم "فيلون السكندري (20ق م - 50 م) في اليهودية" و"أفلوطين (205م - 275م) في المسيحية"، كما ظهر شُرَّاح ومفسرون لنصوص أرسطو عملوا على مد الجسور بين الفكر الفلسفي والفكر الديني المسيحي واليهودي على الخصوص[1].

1. محمد عابد الجابري، *ابن رشد سيرة وفكرة*، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، 1998م، ص 155.

## محاولة الدمج بين الفلسفة والدين في الإسلام :

لقد حدث الشيء نفسه في الإسلام، حيث حاولت بعض الاتجاهات الفكرية . فلاسفة وعلماء كلام . بالاستفادة من التراث اليوناني على غرار ما حدث في الديانات الأخرى اليهودية، والمسيحية، محاولة الاستفادة من تجربتهما في التوفيق بين الفلسفة والدين، ويمكن الإشارة إلى بعض ما أخذ المسلمون من كتب الفلاسفة الإغريق على سبيل المثال لا الحصر، بذكر منطقيات أرسطو وإلهياته، وخلفياته، وتبعاته، كما أخذوا جدليات وإلهيات أفلاطون، والتي تدخل فيها المحاورات المشهورة الأربعة "طاطيطوس، قراطيلوس، سوفسطس، وبرماينوس"[1] وقد ظهرت هذه المحاورات في "فهرست ابن النديم" وفي "تاريخ الحكماء" للقفطي[2]، ومن هذه الكتب، كتاب "المقولات" وقد قال عنها الفارابي: "إنه في قوانين المفردات من المقولات والألفاظ الدالة عليها" وقد شرحها الفارابي

ومنها كتاب: "باري أرمنياس" أي التفسير، الذي ترجمه حنين ابن إسحاق وفسره الفارابي، وكذلك كتاب: "أنا لوطيقا" الثاني والذي يعني "البرهان" وقال عنه الفارابي إن فيه القوانين التي تمتحن بها الأقاويل البرهانية وقوانين الأمور التي تلتئم بها الفلسفة، وهناك الكثير غير هذه الكتب مما تمت ترجمته وشرحه واختصاره، والأخذ عنه في مناقشة قضايا العقيدة الإسلامية، وحتى بعض ثوابتها التي ما كان أحد يجرؤ على مناقشتها والمجادلة فيها، لأنها من القضايا المسلم بها بين الناس، كالروح، والذات الإلهية، وموضوعات شتى تتعلق بالساعة، وبالبعث، وبالخلق،...

---

1. محمد البهي، *الجانب الإلهي في التفكير الإسلامي*، دار الفكر، الطبعة الخامسة، بيروت، لبنان، 1972م، ص193.
2. نفس المرجع، ص 194.

وقد ذهب بعض الدارسين في تفسير هذا الإقبال لدى علماء الإسلام على الفكر الفلسفي اليوناني، إلى أن السبب يرجع إلى الميل العقلي لديهم، والرغبة في الدفاع عن العقيدة بأساليب مهاجميها من الأجانب، وقال البعض الآخر أن هناك أسباب أخرى منها: الدقة التي كان عليها المنطق الأرسطي، والاشتراك في توحيد الخالق وتنزيهه عن التشبيه والتعطيل، والنقص ... وسلوك الفلاسفة أنفسهم الأقرب إلى الزهد والتصوف، وترك الأهواء والشهوات، ونبذ الدنيا بجميع ملذاتها... ومن هذه الأسباب أيضا، الزج ببعض الرسائل الدينية الموسوية والعيسوية . يهودية ومسيحية . مضفات عليها الفلسفة الإغريقية، ضمن مؤلفات الفلاسفة الإغريق أنفسهم بعد أن نقلت منسوبة إليهم[1].

ومن أشهر المتأثرين بالفكر الفلسفي من علماء المسلمين، "الفارابي" و"ابن سينا" وقد شكلت شروح الفارابي في كتابه "فصوص الحكم" مثالا واضحا على تأثره بالفكر الأفلوطيني والأرسطي، كقوله في شرح قوله تعالى: ﴿**هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ (الحديد، الآية 3) إنه الأول من جهة أنه منه، ويصدر عنه كل موجود غيره، وهو الأول من جهة أنه أول بالوجود لغاية قربه منه ... وهو أول لأنه إذا اعتبر كل شيء كان فيه أولا أثره، وثانيا قبوله بالزمان، وهو آخر لأن الأشياء إذا لوحظت ونسبت إليها أسبابها ومبادئها وقف عنده المنسوب، فهو آخر لأنه الغاية الحقيقية في كل طلب... والأمثلة على هذا الاقتداء كثيرة[2].

---

1. نفس المرجع ، ص 221.
2. نفس المرجع ، ص 221.

## تأثير الفلسفة اليونانية على علم الكلام:

عملت المعتزلة على النهل من التراث الفلسفي اليوناني والفارسي وخصوصا ما تعلق منه "باللاهوتيات"، حتى يرتّبوا هم أيضا عقائدهم الدينية على أصول فلسفية، ويجدوا لأنفسهم كلاما منطقيا دقيقا يتقنون فيه صياغته فن المناظرة والجدال، غير إنهم لم يكتفوا باستخدام الفلسفة للرد على الخصوم، بل نجدهم أقبلوا عليها في أمورهم الداخلية وفي تغيير مفهومهم بما جعلهم يعيشون ثورة حقيقية غيرت نمط تفكيرهم رأسا على عقب، بعد أن لم يعودوا ينظرون إلى الفلسفة كوسيلة وأداة ذلك إلى ما نعرفه عن بعض أرائهم وأحكامهم التي استلزمت تكفيرهم من لدن خصومهم من المسلمين، ولم يقتصر الأمر على المعتزلة وحدهم، بل نجد الأشاعرة أيضا قد اجتهدوا في تدارك ما فاتهم به المعتزلة فسقطوا في نفس الفخ المعرفي.

وهكذا نتج عن هذه الوضعية الجديدة التي ساهم فيها الدخلاء على الأمة الإسلامية من غير العرب الذين كانوا يعلنون إسلامهم صاغرين ويضمرون للإسلام الحقد والضغينة أمران:

1 - تعظيم الفلاسفة والأخذ بالكثير من حِكَمهم، بل اعتبرها بعضهم من مكملات تعاليم الإسلام، حتى أصبح المنطق مقدمة للبراهين العقائدية، وذهب البعض من العلماء المسلمين للبحث عن قواسم مشتركة مع الفكر الفلسفي، الشيء الذي جرهم إلى الخوض في أمور دينية لم يكن السؤال فيها ذا فائدة، بقدر ما كان سببا في الفرقة وتعدد المذاهب، والمدارس الفكرية بين المسلمين نتيجة تعدد المواقف واختلافها وتضاربها بعدما كانت على وفاق واتفاق.

**2-** بدء الابتعاد عن الأهداف الدينية وإهمال العقائد المتصلة بالإلهيات والانصراف إلى الفلسفة بعيدا على كل اعتقاد ديني كالبحث في الحركة والسكون، وفي الجوهر والعرض، والخالق والمخلوق، والموجود والمعدوم...

## الفكر الغنوصي والفرق الباطنية

هي فرق تأثرت بالفلسفات والأفكار والمعتقدات الدخيلة على الإسلام، يقول الإمام أبو حامد الغزالي في شأنهم: "فأما الباطنية فقد لقبوا بهذا الاسم لدعواهم أن لظاهر القرآن والأخبار بواطن تجري في الظاهر مجرى اللب من القشرة"[1].

وقد أرادوا بذلك الإشارة على عدم أتباع ظاهر القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، بما يظهر فيهما من تكليف، وهكذا يسقطون التكليف عن كل مرتق إلى علم الباطن، وقد قالوا إنهم المرادون بقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ**﴾ (الأعراف، الآية 157)

ومن هؤلاء الإسماعيلية، نسبة إلى زعيمهم محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق (110هـ ـ 158هـ)، الذين يزعمون أن أدوار الإمامة انتهت به، إذ قالوا إنه السابع بعد محمد صلى الله عليه وسلم، وقد كانت أدوار الإمامة عندهم سبعة، وكانوا يثبتون النبوة لسابعهم فسموا "**بالسبعية**"، لهذا الاعتقاد ولجعلهم علاقة ذلك بالكواكب السبعة، التي كانت معروفة في عصرهم.

---

1. أبو حامد الغزالي، *فضائح الباطنية*، ص 11.

ومنهم كذلك التعليمية الذين قالوا بإبطال الرأي وإبطال تصرف العقول، ودعوا إلى التعلُّم من الإمام المعصوم، باعتبار أنه لا مدرك للعلوم إلا بالتعلم[1].

ويرجع أبو حامد الغزالي هذا التيار الهدام بقوله بأنهم جماعة من المجوس، والمزدكية، وشرذمة من الثنوية الملحدين، وطائفة كبيرة من ملحدة الفلاسفة المتقدمين، هذه باختصار كبير أهم التيارات الفكرية التي أرادت ضرب العقيدة الإسلامية باسم العلم، وبوسائل متعددة ولكن غايتها واحدة في النهاية.

**أبو حامد الغزالي وظاهرة التكفير في مجال العلم :**

يعتبر أبو حامد الغزالي نموذجا فريدا من التأليف والتعليم، فهو بحق يمثل ثقافة عصره، ويجد فيه القارئ انه يمثل محصلة علوم شتى، فهو الفيلسوف، والمتكلم والصوفي، وحجة الإسلام ومحي علوم الدين، والفكرة الرئيسية التي تدور حولها معظم كتبه هي الفكرة الدينية التي شغلت حياته كلها، والتي سعى لإثباتها وتثبيتها لدى مستمعيه وقراءه.

اطلع الغزالي على الفلسفة اليونانية التي مثلها أرسطو وأفلاطون، وتأثر بها كل من الكندي والفارابي وابن سينا فألف كتابه تحت عنوان مقاصد الفلاسفة، الذي بين فيه مذاهبهم قبل الإقدام على نقدها وإبطالها.

بعد هذا الكتاب ألف الغزالي كتابه المشهور والذي هو محور بحثنا "تهافت الفلاسفة" للرد على الفلاسفة القدامى : أفلاطون (428 ق م–348 ق م) وأرسطو (384ق م–322ق م) وأتباعهم اليونانيين، وعلى الفلاسفة المسلمين الكندي ( 185هـ–256هـ) الفارابي (260هـ–339هـ) وابن سينا (370هـ–427هـ) على الخصوص وأشياعهما الذين

1. أبو حامد الغزالي، *فضائح الباطنية*، ص 17.

تركوا الدين اعتزازا بعقولهم وتقليدا للفلاسفة القدماء، مبينا تهافت مذاهبهم وتناقضهم فيما يتعلق بالإلهيات.

**دوافع المشروع :**

يذكر الغزالي رحمة الله عليه دوافع تأليفه لهذا الكتاب قائلا : "أما بعد فإني رأيت طائفة يعتقدون في أنفسهم التميز عن الأتراب والنظراء، بمزيد الفطنة والذكاء، قد رفضوا وظائف الإسلام من العبادات، واستحقروا وظائف الصلوات، والتوقي عن المحظورات، واستهانوا بمتعبدات الشرع وحُدوده، ولم يقفوا عند توقيفاته وقيوده، بل خلعوا بالكلية ربقة الدين، بفنون من الظنون يتبعون فيها رهطا يصدون عن سبيل الله، ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون ... فلما رأيت هذا العرق من الحماقة نابضاً على هؤلاء الأغبياء ابتدأت لتحرير هذا الكتاب"[1].

هكذا يوضح الغزالي دوافع مشروعه الذي انتهى فيه إلى تكفير الفلاسفة، في القضايا التي كانت تتعرض مع أصول العقيدة الإسلامية كما سنرى.

**منهجه في مواجهة الفلاسفة :**

لقد تحدد منهج الغزالي في النقاط الرئيسية التالية :

**أ- تحديد الخصم :**

أحس الغزالي بموقعه العلمي المتعالي، على الفلاسفة، فهو رجل دين، وأي دين ؟ إنه الإسلام وكفى، ومن هنا اختار الهجوم عل رؤساء القوم . أرسطو وأفلاطون . وأشهرهم، وسقوط الرؤساء يعني

---

1. أبو حامد الغزالي، *تهافت الفلاسفة*، تحقيق جمال الدمشقين، دار الإسراء للنشر والتوزيع، عمان الأردن، الطبعة الأولى، 2005م، ص 5، 7.

سقوط القوم برمتهم، ومن هنا كانت ضربته القاضية، وفي هذا يقول رحمة الله عليه:"ليُعلَم أن الخوض في حكاية اختلاف الفلاسفة تطويل فإن خطبهم طويل، ونزاعهم كثير، وأرائهم منتشرة، وطرقهم متباعدة متدابرة، فلنقتصر على إظهار التناقض في رأي مقدمهم الذي هو الفيلسوف والمعلم الأول، فإنه رتب علومهم وهذبها بزعمهم، وحذف الحشو من آرائهم، وانتقى ما هو الأقرب إلى أصول أهوائهم وهو (أرسطو طاليس)، وقد رد على كل من قبله حتى على أستاذه (أفلاطون)."[1]

**ب – إبراز الخلاف بين الفلاسفة وغيرهم :**

يعمد الغزالي إلى إبراز الخلاف بين الفلاسفة وغيرهم فيقسمه إلى ثلاثة أقسام:

**القسم الأول** : خلاف يرجع النزاع فيه إلى لفظ مجرد، كتسميتهم صانع العالم . تعالى الله عن قولهم . جوهراً، مع تفسيرهم الجوهر، بأنه الموجود لا في موضوع، أي القائم بنفسه الذي لا يحتاج إلى مقوم يقومه، ولم يريدوا به الجوهر المتحيز على ما أراده علماء الكلام.

يقول الغزالي: "ولسنا نخوض في إبطال هذا... فإن تحريم إطلاق الأسامي وإباحتها يؤخذ مما يدل عليه ظواهر الشرع"[2].

**القسم الثاني**: ويتعلق بما لا يصدم مذهبهم فيه أصلا من أصول الدين، وليس من ضرورة تصديق الأنبياء والرسل منازعتهم فيه كقولهم :

1. نفس المرجع، ص 7.
2. المرجع السابق ، ص 9.

- إن كسوف القمر، عبارة عن انمحاء ضوء القمر بتوسط الأرض بينه وبين الشمس، والأرض كرة والسماء محيطة بها من جميع الجوانب، وإن كسوف الشمس وقوف جرم القمر بين الناظر وبين الشمس عند اجتماعهما في العقدتين على دقيقة واحدة، وهذا الفن أيضا لسنا نخوض في إبطاله إذ لا يتعلق به غرض، ومن ظن أن المناظرة في إبطال هذا من الدين فقد جنى على الدين، وضعَّف أمره، فإن هذه الأمور تقوم عليها براهين هندسية حسابية لا يبقى معها ريبة... وضرر الشرع ممن ينصره لا بطريقه أكثر من ضرره ممَّن يطعن فيه بطريقة، وهو كما قيل عدوٌّ عاقل خير من صديق جاهل... وأعظم ما يفرح به الملحدة، أن يصرح ناصر الشرع بأن هذا وأمثاله على خلاف الشرع، فيسهل عليه طريق إبطال الشرع"[1]

والغزالي هنا يقصد كل العلوم الكونية، التي هي فرض كفاية على المسلمين، ففهم أسرار الكون يزيد في وعي المسلم بمحيطه، ويزيده يقينا بربه، خالق الكون وما فيه، ومن هنا يمكن له الاستفادة من التراث الإنساني وغربلته، وأما ردها من غير تعقلها فإنه يضر بالدين ولا يخدمه، فالمسلم في خدمة دينه على الدوام، فهو حامل لرسالة، وما أحوج الأمة الإسلامية اليوم إلى مثل هذا، في ميادين العلوم المعاصرة، والتي لا مفر من التعامل مع نتائجها، التي تحتاج إلى تصفية دقيقة وذلك بفهمها وعرضها على أصول العقيدة الإسلامية، وحفظ الأمة من مساوئها والاستفادة من ايجابياتها.

**القسم الثالث:** ما يتعلق النزاع فيه بأصل من أصول الدين، كالقول في حدوث العالم، وصفات الصانع، وبيان حشر الأجساد والأبدان، وقد أنكروا جميع ذلك، فهذا الفن ونظائره هو الذي يظهر فساد مذهبهم فيه دون ما عداه.[2]

---

1. نفس المرجع، ص 10.
2. نفس المرجع، ص 12.

ومن هنا يحدد الغزالي موضع النزاع مع الخصوم، بعد تفصيل علومهم، وهو يرسم طريق التعامل مع العلوم الكونية وغيرها والتي نشارك فيها غيرنا، فإن هذا الغير تربطنا به علاقات إنسانية، وهناك الكثير من الأمور نشترك فيها معه لا تضر بديننا، وهذا من شأنه أن يجعل حجتنا قوية، وعملنا منتج ومفيد، فديننا دين للإنسانية جميعاً.

**ج – تحديد موقعه في النزاع :**

يحدد الغزالي هنا موضوع بحثه بكل وضوح، فهو لا ينطلق من كونه أشعري المذهب، ولا كصوفي، ولا كأصولي،... وإنما كمسلم لا غير، ويتخلى عن كل ذلك. يتعالى عن الخلافات الداخلية . فإنه يهون أمام هذا العدو الشرس الذي يريد تحطيم أصول الدين، ومن هنا فهو يستفيد من كل ما من شأنه أن يفيده في معركته ضد الخصوم، ولو كان ذلك لفرقة إسلامية يختلف معها في الرأي، ومن هنا يقول: "أنا لا أدخل في الاعتراض عليهم إلاّ دخول مطالب منكر، لا دخول مدع مثبت، فأبطل عليهم ما اعتقدوه مقطوعا بإلزامات مختلفة، فألزمهم تارة مذهب المعتزلة، وأخرى مذهب الكرامية، وطورا مذهب الواقفية، ولا انهض ذابا عن مذهب مخصوص، بل أجعل جميع الفرق إلباً واحدا عليهم، فإن سائر الفرق ربما خالفونا في التفصيل، وهؤلاء يتعرضون لأصول الدين، فلنتظاهر عليهم فعند الشدائد تذهب الأحقاد."[1]

ما أحوجنا اليوم لعلماء تتسع صدورهم لقبول الرأي المخالف، والعمل على جمع الشمل في الوقوف أمام أعداء الأمة اليوم وما أكثرهم وما أشرسهم، وما أضعف أمتنا اليوم في جميع الميادين.

---

1. نفس المرجع، ص 13.

**د – كشف حيل الفلاسفة في استدراج العوام :**

يقول الإمام الغزالي في المقدمة الرابعة لكتابه: "من عظائم حيلهم في الاستدراج، إذا أورد عليهم إشكال في معرض الحجاج قولهم:إن هذه العلوم الإلهية غامضة خفية، وهي أعصى العلوم على الأفهام الذكية، لا يتوصل إلى معرفة الجواب عن هذه الإشكالات إلا بتقديم الرياضيات، والمنطقيات، فيمن يقلدهم في كفرهم، إن خطر له إشكال على مذهبهم يحسن الظن بهم ويقول: لاشك في أن علومهم مشتملة على حله، وإنما يعسر عليَّ دركه لأني لم أحكم المنطقيات ولم أحصل الرياضيات..."[1]

والجدير بالملاحظة أن هذه الحيلة لا تزال إلى يومنا هذا، فالرياضيات هي لغة العلم المعاصر، فما من فرع من فروع العلم اليوم إلا ويستخدم الرياضيات، وكثير إن لم نقل، كل رجالات الدعوة لا علاقة لهم بأبجديات لغة الرياضيات، ومن هنا فإن كلمة أثبت العلم . كثيرا ما تلجمهم عن الكلام ومن ثمة الإدلاء برأيهم في الكثير من الأمور التي تتناقض مع أصول دينهم، وأما الذين يتقنون لغة العلم المعاصر من أبناء أمتنا فكثيرا ما يفتقدون لعلوم الدين التي تمكنهم من فهم مكنوناته، فما أشبه اليوم بالأمس، فالأمة بحاجة إلى خيرة أبنائها الموسوعيين على غرار الإمام الغزالي.

**هـ – نتائج مشروع الغزالي :**

بعد هذا يناقش الغزالي الفلاسفة مناقشة فلسفية مستخدماً سلاح أرسطو"المنطق" وقد بين أن العقل صالح في الأمور الرياضية والمنطقية، لأنها أمور لا تعلق لها بأصل من أصول الدين، وإعمال العقل صالح في العلوم الطبيعية، ما لم تتنافى مع أصول العقيدة الإسلامية.

---

1. نفس المرجع، ص13.

ويعلن الغزالي صراحة بأن العقل عاجز عن البحث في الأمور الإلهية، والتي فيها أكثر أغاليط الفلاسفة وتهافتهم، وفساد مذهبهم وقصور أدلتهم، ولإثبات العجز اعترض الغزالي على الفلاسفة في عشرين مسألة راءاها تعارض العقيدة الإسلامية، ثلاثة منها تؤدي إلى تكفيرهم، وما تبقى تلزم تبديعهم، والمسائل الثلاثة المكفرة والتي هي موضوع بحثنا هي :

1- قولهم بقدم العالم.

2- قولهم بأن الله يعلم الكليات دون الجزئيات.

3- قولهم بعدم بعث الأجساد وحشرها.

والناظر في تفاصيل الفلاسفة لهذه المسائل يتضح له حكم الغزالي، فهو يستعرض أقوالهم ثم يرد عليها بحججه المنطقية ووفق المنهج الذي حدده لنفسه، ومن هنا فإن حكم التكفير لم يكن غاية البحث عند الغزالي وإنما أراد أن يحيط العقيد بسياج يحمي به عوام الناس من مغلطاتهم، وأما خواص المؤمنين فإنهم يعرفون ذلك جيدا، فالحكم بالتكفير نتيجة منطقية توصل إليها بعد تحليل أقوالهم ولم تكن غاية مسبقة، وهكذا يجتهد في وضع منهجه الذي نال إعجاب الكثير، واعترض عليه البعض.

وهكذا يضع لنا الغزالي في كتابه هذا منهجا متكاملا، يحدد لنا الإطار الذي نتعامل فيه مع الفكر الإنساني، فليس كل ما جاء من الآخر مرفوض جملة وتفصيلا، وإنما يعرض على كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فما وافقه أخذناه وما خالفه رفضناه كائنا من كان، فإن ما وافق كتاب الله هو الحق، فإن رفضنا ذلك نكون قد طعنا في أمر ديننا وأعطينا بذلك حجة لأعدائنا، فهو لا يرفض مبدأ التكفير، وإنما يجعل له ضابط كما مر معنا،

وهو منهج جدير بالاهتمام في عصرنا، لأن العلم الحديث أصبح يتحكم في كل شؤون الإنسان المعاصر، في الاقتصاد، والسياسة، والاجتماع،... والجدير بالملاحظة أن العلم المعاصر الذي نحاول تعلمه، وجلبه لبلداننا الإسلامية قائم على أسس وتصورات (**للكون، والإنسان، والله**)، مخالفة تماما لمبادئ الإسلام، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فالحياة المعاصرة قائمة عليه، لما له من ارتباط وثيق بالتكنولوجيا المعاصرة، حيث أصبح من العسير على أهل الاختصاص التمييز بينهما فما بالك بغيرهم، والتخلي عن العلم المعاصر ومناهجه فهو ضرب من الجنون عند من له نظرة سطحية لمضمون العلم المعاصر، لكن المتتبع لتطور مفاهيمه يدرك جيدا حاجة أهله إلى معلم ثابت يهتدون به في أبحاثهم، ويدرك جيدا معنى قوله تعالى:﴿**إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا**﴾ (الإسراء، الآية 9).

فهداية الله لا يمكن أن يستغنى عنها الإنسان في كل شيء من حياته كلها. وجدير بنا أن نتعرض لإيضاح بعض الأسس التي يقوم عليها العلم الحديث والعلم المعاصر، لأن هناك اختلاف كبير بينهما في المفاهيم والأسس، مما أدى إلى اختلاف في التصورات والنتائج.

**أسس العلم الحديث**

كان النزاع قائما منذ ألف عام بين الدين والفلسفة، لأن العلم لم يكن قد انفصل عن شجرتها، إذ كانت الفلسفة تشمل جميع العلوم، وكانت الفيزياء أول علم يستقل عنها، بعدما اتخذت لنفسها طريقا غير طريق الفلسفة، فدشنت بذلك بداية العلم الحديث الذي انطلق مع النظرة الجديدة للكون التي جاء بها العالم البولندي كوبرنيك (1473م ـ 1543م) الذي أزاح الأرض من مركزها وأصبحت مجرد تابع من توابع المجموعة الشمسية، ومن هنا انحطت قيمة الإنسان الذي انتقل مع الأرض من المركز إلى الهامش.

وبعده جاء جيل جديد من العلماء ليضعوا أسس العلم الحديث من أمثال غاليلي الإيطالي (1564م ـ 1642م) والنيوتن البريطاني (1642م ـ 1727م) والعالم الفرنسي لابلاس (1749م ـ 1827م)، وكانت انطلاقتهم من قانون الجذب العام الذي ينظم الكون وقد وضعه النيوتن، بعدما حدد منطلقات الفيزياء بتصوره للمكان المطلق، والزمان المطلق بناءا على مبدأ العطالة الذي وضعه غاليلي من قبل، والذي ينص على أن الجسم المادي عاجز عن تغيير حالته الحركية ما لم يؤثر عليه مؤثر خارجي، وأصبح العلم ينظر للكون كبناء ميكانيكي لا يحتاج لمن يدبره، كما أصبح ينادي بمبدأ الحتمية، التي تعني أن توفر الأسباب والشروط تحتم وقوع النتائج، وبناءا على ذلك يكتفي العالم بنفسه، ولا حاجة إلى إله يدبر شؤونه، ويكفي وجود مادة وحركتها، وتطورها وسيرها في طريقها المحتوم، ولأول مرة ظهر مفهوم العالم الموحد، الذي تكون فيه القوانين الفيزيائية صحيحة في جميع نقاطه، وانتهى العلم الحديث إلى ثلاثة مبادئ تحكم العالم وهي:

1- مبدأ انحفاظ المادة.

2- مبدأ انحفاظ الكتلة.

3- مبدأ انحفاظ الطاقة.

وكان ذلك بالاعتماد على المنهج التجريبي الذي يقوم على المشاهدة، والتجربة، والإحصاء، واستعمال لغة الرياضيات، وإزاء التقدم الذي عرفه العلم بفضل العلوم الفيزيائية، بدأت باقي العلوم الأخرى تقلد الفيزياء في منهجها بما في ذلك العلوم الإنسانية، ومن هنا أصبح البعض يتساءل لما لا نطبق المناهج العلمية على الدين، بل أكثر من ذلك ذهب البعض إلى التشكيك في الحقائق التي أقرها الدين

لأنها لا تخضع للمناهج العلمية على حد تعبيرهم، وقد زادت نظرية التطور الداروينية . نسبة للعالم الإنجليزي الجنسية اليهودي الأصل داروين (1809م . 1882م) . والتي تدّعي أن الإنسان أصله قرد، وافترضت وجودْ كائنات حية وحيدة الخلية هي أصل كل الكائنات العضوية الموجودة فوق الأرض، هكذا نشأت موجة من الإلحاد في الأوساط الفكرية الغربية، حاول المستشرقون نقلها للعالم الإسلامي في محاولة لتقويض أسس العقيدة الإسلامية باسم العلم والمناهج العلمية، ولا يزال أثرها إلى اليوم تحت مسميات متعددة، وفي مختلف ميادين العلوم سواء التجريبية أو الإنسانية.

**العلم المعاصر وتقاربه مع الدين :**

في نهاية القرن التاسع عشر وقع العلم الحديث في مشكلة كادت تأتي على بنيانه من الأساس، بسبب التجربة التي أجراها العالمان الفيزيائيان الأمريكيان . ميكلسون (1850م . 1931م) ومورلي (1838م . 1923) حول وجود مادة الأثير التي افترض العلم الحديث وجودها، وكانت نتائجها متناقضة مع كل مبادئ الفيزياء التي وضع أسسها النيوتن، ولم يكن أمامهم سوى قبول نتائج التجربة وبالتالي تكذيب كل المبادئ والأسس التي قام عليها العلم الحديث، وإما رفض نتائج هذه التجربة وبالتالي القضاء على المنهج الذي قام عليه العلم الحديث، وكلا الأمرين مر، وأصبحت هذه التجربة حديث العام والخاص، وأعيدت عدة مرات فكانت النتائج نفسها، واستمر الأمر على هذا الحال وبدأ العلماء يتشككون في كل البناء العلمي الذي أقام أسسه علماء القرن السابع عشر وأقيمت عليه نتائج مبهرة، وبحلول القرن العشرين ظهرت النظرية النسبية الخاصة، وبعدها النظرية النسبية العامة على يدي اينشتاين لتقضي على ما تبقى من أسس الفيزياء التي أقامها النيوتن، وظهر الميكانيك الموجي، والميكانيك

الكمي، ومن هنا بدأ ما يسمى بالعلم المعاصر والذي ترتبت عنه نتائج فلسفية متوافقة مع الدين، حيث ألغيت الحتمية العلمية، وحلّ محلها الاحتمال، وألغي الزمن المطلق، والمكان المطلق، وحل محلهما مفهوم الزمكان، وألغى مبدأ انحفاظ المادة، ومبدأ انحفاظ الكتلة، وجاء بمفاهيم جديدة وبرز مفهوم القوة الغيبية التي تسير الكون وتدبره في كل لحظة وحين.

وما نريد إثباته من كل هذه الخلاصة السابقة أن الحقائق العلمية متغيرة مع الزمن، فما كان بالأمس صحيح قد أبطل اليوم، وما هو صحيح اليوم قد يبطل غدا وهكذا، وأما الحقيقة القرآنية فهي دوما صحيحة، ومن هنا فإن الحقيقة العلمية يجب عرضها على الثابت من أصول ديننا قبل الإقرار والعمل بها، وهذا هو المنهج الذي سار عليه سلفنا الصالح كما رأينا مع الإمام الغزالي.

والملاحظ أن تقدم الباحثين من أبناء المسلمين في شتى مجالات العلوم المعاصرة، لم يوازيه تقدم مماثل في المباحث الدينية من الناحية العلمية، فإن كثيرا من كبار العلماء في مختلف الفنون لا تزيد ثقافتهم الدينية عن ثقافة العوام، بل أحيانا أقل، مما جعل الأمر يصعب عليهم مواجهة نتائج العلم، فخدموا أعداء الإسلام دون قصد، وفي الجانب الآخر نجد رجال الدين بعيدين كل البعد عن العلم المعاصر، ومن هنا تشكل عداؤهم له، وكثيرا ما يشككون في أنفسهم إذا قيل لهم أثبت العلم، لأنهم يجهلون لغته فيسلمون بنتائجه دون وعي، وهذا قد يؤدي إلى الشك في المعتقدات الدينية الأساسية.

ويبدو لي أن المنهج الذي وضعه الإمام الغزالي رحمه الله، يمكن أن يشكل لنا أساسا من الأسس التي نعتمد عليها في مواجهة الأخطار الداهمة، تحت مسميات وأغطية مختلفة، ويكون ذلك :

– بمسايرة التطور العلمي بوعي وبصيرة.

– جعل المنظومات التعليمية في العالم الإسلامي تتمحور حول كتاب الله وسنة رسول الله، بحيث تكون باقي العلوم منها وإليها، كما كان الحال عند أسلافنا.

– العودة إلى الذات ووعي الواقع الذي نعيشه بإيجابياته وسلبياته، وفقا للضوابط الشرعية ضمن الإطار العقائدي.

**المراجع :**


1. محب الدين احمد بن عبد الله الطبري، *غاية الأحكام في أحاديث الأحكام*، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط 1، 2004م.
2. صحيح البخاري، *المكتبة العصرية*، بيروت لبنان، ط1، 1998 م.
3. عرفان عبد الحميد فتاح، *دراسات في الفكر العربي الإسلامي*، دار الجيل، بيروت لبنان، ط1، 1991 م.
4. عصام الدين محمد علي، *تاريخ الفلسفة الإسلامية*، منشأة المعارف، الإسكندرية.
5. مرسل داغر، *النسبية من النيوتن إلى أينشتاين*، دار اليقظة العربية، دمشق سوريا، 1964م.
6. محمد عابد الجابري، *ابن رشد سيرة وفكرة*، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 1998 م.
7. محمد البهي، *الجانب الإلهي في التفكير الإسلامي*، دار الفكر بيروت لبنان، ط5، 1972م.
8. أبو حامد الغزالي، *فضائح الباطنية*، دار الإسراء للنشر والتوزيع، عمان، 2005م.
9. أبو حامد الغزالي، *تهافت الفلاسفة*، دار الإسراء للنشر والتوزيع، الأردن،ط1، 2005م.
10. عبد الله بن محمد القرني، *ضوابط التكفير عند أهل السنة والجماعة*، مؤسسة الرسالة، ط1، 1990م.